

غياب الأب المفرط عن محيطه الأسري وتأثيره على حياة الطفل
بالمغرب الأوسط بين القرنين 7-9هـ/13-15م.

The long absence of father from their family atmosphere and its effects on the child life in the Middle Maghreb between the 7-9AH/13-15.

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: د. البشير بوقاعدة- Bougaada Bachir صص 52-72
الدرجة ومؤسسة الانتماء: أستاذ محاضر قسم أ- جامعة محمد لين دباغين سطيف2، الجزائر.
البريد الإلكتروني: bachirbougaada@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/09/14 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/13

الملخص: تتناول هذه الورقة البحثية بالدراسة والتحليل جانباً من المخلفات الاجتماعية والنفسية على حياة الطفل بالمغرب الأوسط بين القرنين 7-9هـ/13-15م، تلك الناجمة بشكل مركز عن غياب الأب عن فضائه الأسري لفترات زمنية واسعة تصل أحياناً إلى عدة سنوات منشغلاً بأمور الحرب والتجارة والرحلة في طلب العلم ودون اصطحاب الأهل، ولئن كانت المادة المصدرية المتمثلة في كتب التاريخ والحوليات لم تحتفظ لنا بما يكفي من مادة خبرية تميّط اللثام عن حيثيات تلك المخلفات وجوانب تلك المفرزات؛ فإن ذلك النزر اليسير من الإشارات التي وقفنا عليها بين أحشاء النصوص التراجيمية- المنقبية ومصنفات الرحلة، وما احتفظت به أيضاً النصوص النوازلية، شكّلت حجر الأساس لمعالجة إشكالية هذه الدراسة، لا سيّما ما تعلّق بطبيعة الانعكاسات التي أنتجها ذلك الغياب على المستوى الاجتماعي والنفسي لطفل المرحلة الزمنية الخاضعة للدراسة، كما تسلّط الضوء على مستويات ذلك التأثير السلبي ومظاهره في حياة الطفل، من مثل تحمّله المسؤولية في سن مبكرة من حياته، وانخراطه في سوق الشغل في مرحلة عُمرية لا تتناغم وطبيعة الجهد الذي يقتضيه ذلك النشاط ويتطلبه، والفراغ الاجتماعي والنفسي المحتمل أن يعيشه الطفل في ظل غياب والده عن فضائه الأسري مدة واسعة، وحياة الفقر والعوز المالي الذي يمكن أن يعانيه الطفل إذا غاب من يقوم على أمور الأسرة

الاجتماعية والمالية ولم يترك معيلاً ولا من يخلفه على إدارة مؤسسته الاجتماعية نيابة عنه.

الكلمات المفتاحية: الطفل، النفسية، المغرب الأوسط، التأثيرات، الرحلة، الاجتماعية، غياب طويل، علمية، تجارية.

ABSTRACT: *This research paper aims at studying and analyzing the consequences and the socio psychological effects on the life of the child of the Middle Westerner between the 7-9AH/13-15CE, as a result of the long absence of fathers from the family atmosphere occupied with the trip and its scientific, religious and commercial purposes. Although the source material represented by history books and annals did not preserve enough information that reveals those effects and consequences, the very little indications that we came across it within the biographical texts, the texts of voyagers and Nawazili texts formed the basis of this study and fed its researches, in particular those relating to the nature of the implications created by that absence at the social level, and the psychological effects that characterized the sentimental life of the child of the period under consideration. It also deals, in the second part, with the effects of the long absence of fathers from their family atmosphere, occupied with the trip and its purposes be it scientific, religious or military, on the behavioral, the educational and the social upbringing of the child. Among this, the child being responsible and accountable at a young age and entering the labor market at a period of age that does not suit the nature of the efforts required by the child's work. In addition to the big social vacuum lived by the child with the absence of his father from the family for a long time. Not to mention, the lack of money and the child life of poverty in the absence of who is in charge of the household financial and social affairs.*

Keywords: *child; psychological; the Middle West; effects; trip; social; absence; long; scientific; commercial.*

1- المقدمة: من الإشكاليات التاريخية التي تشدّ انتباه الباحث في تاريخ المغرب الأوسط بين القرنين 7-9هـ/13-15م، إشكالية غياب الأب عن محيطه الأسري وفضاءه الاجتماعي لفترة زمنية طويلة، قد يصل الأمر أحياناً أن تستغرق عدة سنوات، ومن الطبيعي أنّ هذا الغياب حتى وإن كان له ما يُبرّره أو كان اضطرارياً؛ كالانشغال في حرب حصار طالّت مدتها، أو السفر للتجارة بما يستغرق مدة زمنية معتبرة، أو كان الانشغال لسبب الرحلة في طلب العلم من بلد إلى بلد ومن حاضرة لأخرى دون اصطحاب الأهل واستنزاف مدة زمنية معتبرة؛ فإنّ لذلك الغياب انعكاس سلبي على حياة الأبناء النفسية والاجتماعية،

خصوصا إذا لم يترك الأب معيلا ينوب عنه في إدارة شؤون الأسرة الاجتماعية، ويولي حاجياتها المتلونة ومنها المالية.

ومن المعلوم أنّ الطفل في مرحلة الطفولة، وبخاصة في مرحلتي الطفولة الوسطى (من السنة السادسة إلى التاسعة) والطفولة المتأخرة (من تسع سنوات إلى الثانية عشر) يعتمد بشكل أساسي على أبويه؛ ذلك أنّه لا يزال في مرحلة النمو، وأنّها مرحلة تتطلب حضور الأب في حياة الابن أكثر من غيرها من مسارات حياته.

تأسيسا على هذا الطرح، تتبدّى مقاصد الباحث على كاهل هذه الورقة البحثية، بكونه سلك منعى إبراز أهم الانعكاسات الاجتماعية والنفسية التي يُخلّفها الغياب المفرط للأب في حياة الطفل أو الابن بالمغرب الأوسط، من خلال تحديد طبيعة الواقع الذي تعيشه شريحة الطفولة على مستوى التكوين والتنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية، كما حاول الباحث من جهة أخرى الكشف عن جانب من صور الرعاية الاجتماعية والنفسية التي تضطلع بها عناصر العائلة المغربية في ظل غياب الزوج أو الأب، في جهد يُفصح عن لعب دور البديل المؤقت للاضطلاع بتلك الوظيفة للتخفيف من الآثار السلبية التي يمكن أن يرمي بها الغياب الطويل للولي عن أسرته أو وظيفته الاجتماعية.

وعليه، فإنّ من الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا الصدد: ما طبيعة الدوافع والحاجات الاجتماعية والنفسية التي تتطلب رعاية مستديمة من طرف الأب في مسار طفولة ابنه؟ وفيما تتجلى أبرز التبعات السيئة لغياب الأب المطول عن حياة ابنه في مرحلة الطفولة في مسار النمو النفسي والتنشئة الاجتماعية؟ وإلى أي حدّ يشكّل غياب الأب المطول خطرا على النمو السليم لشخصية ابنه في كل مناحيها؟

مع أنّه من الجدير الإشارة في طليعة هذه الدراسة، إلى أنّ تركيزنا على المخلفات السلبية للغياب المفرط للأب عن فضائه الأسري لا يُلغي جانبا من الإيجابيات التي ينطوي عليها ذلك الغياب أو ينفي ذلك؛ إذ لا يخفى علينا أنّ الظرفية التاريخية التي عايشها الأب خلال فترة الدراسة كانت تحتمّ عليه في الغالب ذلك الغياب، وأنّ غياب الأب لفترة طويلة كان محدودا وليس سمة شائعة، وأنّ الجهد التكافلي لعناصر المجتمع فيما بينهم كان بارزا بما من شأنه أن يُغطي مشكل حاجة العجز في النفقة.

كما أنّ مخلفات هذا الغياب السلبي ينطبق على عناصر محدودة من شريحة الطفولة، ولم يكن مسألة مطروحة بإلحاح ضمن نصوص المصادر التي وقفنا عليها.

2- أثقال الغياب الأبوي على حياة الطفل الاجتماعية: من الأمور المتفق عليها في عالم الطفل الاجتماعي والنفسي أنّ من متطلبات النمو السليم للطفل أن يكتسب التعلّق الاجتماعي بالوالدين والإخوة وهو في مرحلة المهد، وأنّ أقوى رابطة هي تلك التي تشدّه إلى الوالدين، وبالأخصّ الأمّ في مسعى منه لإشباع رغباته الأساسية من حاجته إلى الراحة والبعد عن الألم، وحاجته إلى التعلّق ودفع العاطفة والاستقرار، والثبات في البيئة التي يفترضها أو المحيطة به¹، وتؤكد الدراسات السوسيو-نفسية أنّ ضيق شبكة العلاقات للوالدين يرتبط بالاختلال الوظيفي للوالدية، ولذلك الاختلال تأثير سلبي على علاقتهما بالطفل وتنشئته، في حين إذا كان حبل التواصل بينهما والتعاون متيناً كان ذلك مفيداً في تنشئته وصناعة شخصيته¹.

ونعتقد أنّ غياب الأب بشكل متكرر ولمدة طويلة عن فضائه الأسري ينطوي على جوانب من الأثر السلبي في مسار العلاقة الزوجية والوظيفة الوالدية، لا سيّما وأنّه كما قيل: إنّ الأولاد يقلّدون الوالدين أكثر ممّا يسمعون من تنبيهاتهم؛ وبالتالي يشكّل الغياب المطول للأب عن حياة الطفل فراغاً ملحوظاً في وظيفته الأبوية، وفي هذا الشأن، تفيدنا الدراسة الموسومة بتنشئة الطفل بأنّ: "ضرورة وجود الأب إلى جانب الأم تكمن في ذلك الدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه لها في مساعدتها على دعم سلطتها تجاه الطفل"².

في ذات الصدد، تُثار في مجال الحياة الاجتماعية والنفسية للطفل إشكالية تتعلّق بما يصطلح عليه بالتناقض بين مطالب الطفل ومطالب البيئة في هذه المرحلة، أو مدى الكفاءة التي يواجه بها الآباء حاجات أبنائهم، وكذا مدى الكفاءة التي يواجه بها الطفل ظروف البيئة المحيطة به³، ومن ذلك الحضور في حياته الاجتماعية، وتوفير جو الاستقرار الاجتماعي الذي ينبغي أن يعيش تحت سقفه أيّ طفل؛ فإذا كانت الزوجة بحكم المرحلة العمرية ومستوى الوعي بحجم الأعباء الاجتماعية الملقاة على كاهل بعلمها تصبر- إلى حدّ ما- على بُعد الزوج وغيابه عن وسطه العائلي إن انشغل عن أسرته؛ فإنّ الطفل لا تسمح له مرحلته العمرية وإمكاناته العقلية والنفسية ومقوماته الإدراكية بأن يتأقلم بشكل مناسب مع ذلك الفراغ الأبوي إن كانت مدته طويلة؛ فالطفل لا ريب جدّ حساس

من فرط غياب الأب⁴، ولا يقوى على مقاومة الضغوط التي تقع عليه في هذه المرحلة، لا سيما إن تعلّق الأمر بالفراغ الاجتماعي الذي ينتاب حياته ويُخيم عليها، والذي يمكن أن يعصف بتوازن نموه النفسي والاجتماعي بحكم أنّه لا يزال في مرحلة التكوين.

أمّا إذا حرصت الأسرة على توفير الجو الاجتماعي المناسب والأنسب، والأرضية العاطفية الكافية باحتضان حياته، وكفالة واقعه النفسي كفالة طبيعية ناجعة؛ فقد حقّقت الأسرة استجابة بطريقة سديدة ومناسبة، وفي الوقت المناسب، وعلى الشاكلة المرجوة لحاجة طفلها، وأشبعت رغباته الاجتماعية والنفسية على الصورة الطبيعية المنشودة، ومن ثمّ يحسّ الطفل بالثقة والأمن والراحة⁵، ويحسن أداء واجبات النمو في مرحلة الطفولة التي يحيها، وينجح في تحقيق مستويات النمو المتوقعة منه⁶، وهو الواقع الذي تفسّره الدراسات النفسية الحديثة، ولعلّه قد يصدق على واقع زمنئذ بأنه: "حالة انفعالية تساعد (الطفل) على الشعور بالتوحد مع البيئة المحيطة به"⁷.

وإذا أردنا أن نقف على صدى ذلك في واقع الطفل في المرحلة الخاضعة للدراسة، نعتقد أنّ ما ألمحت إليه بعض نصوص نوازل الونشريسي حول الواقع الاستثنائي الذي عايشه الطفل زمنئذ من شأنه أن يُقَرِّب لنا صورة عن ذلك؛ وذلك على ضوء النازلة التي فحواها: "إذا انتقل الأب إلى بلد بعيد عن الحاضنة؛ فله أن يأخذ ولده المحضون معه"⁸، ونحو ذلك من المسائل النازلة في هذا الشأن الكاشفة لطبيعة الظرفية الاجتماعية الاستثنائية التي يعايشها بعض الأطفال في تلك الحقبة، ومن ذلك أيضا النازلة التي أوردها تحت عنوان: "من قدم من سفر ووجد مولودا فنفاه عنه؛ ولم يهتم زوجته بالزنى"⁹.

ونازلة الونشريسي المتعلقة بنقل الأب ولده المحضون معه إن انتقل إلى بلد بعيد، وإن كانت لا تتناغم بشكل دقيق مع الاشكالية الرئيسة التي تعالجها هذه الدراسة، إلّا أنها تفيدنا في منحى أهمية مكانة الأب في حياة ابنه، وحجم الضرر الاجتماعي والنفسي الذي يُخلّفه بعده عن حياته إلى جانب أهمية حضور الأم أيضا.

ولا ينتابنا الشك في أنّ البيئة الاجتماعية والمحيط النفسي الذي يختلج الكائن البشري، يتباين من حقبة زمنية لأخرى تبعا لطبيعة الظرفية الاجتماعية السائدة والمنظومة الدينية النازمة لمسار الحياة والمُحدّدة لنظامها، والمناخ العُرفي والتقليد

السائد، وكذا المستندات الثقافية الناطقة برؤية المجتمع للنمط الحياتي الذي ينسجم مع ثقافته ومعتقداته، ويعكس رغبةً تتناغم معها؛ فما كان الطفل بالمغرب الأوسط يفترشه من بيئة اجتماعية وثقافية وعُرفية خلال فترة الدراسة يتباين ولو بنسبة محدودة مع ما يعيشه الطفل الجزائري في راهنا، كما أنّ طبيعة علاقة التأثير والتأثر بين الطفل ووالديه ونسجها ومخرجاتها وقولها، ومحتوى التبادلية الذي تصطبغ بها لا تنطق بصورة متناغمة ومنسجمة كل الانسجام بين واقع الطفل في الحقة المخصصة للدراسة وواقعه في عصرنا هذا، وبالتالي لا يكون الإسقاط صادقا في كل مخرجاته وأحواله إذا انتهجنه في معالجة بعض المحطات البحثية من جسم دراستنا هذه، ولجأنا إليه في حال اضطررنا لذلك أمام شحّ المادة المصدرية أو انعدامها في أحيان أخرى في مساعينا للوقوف على واقع معاناة الطفل بالمغرب الأوسط الاجتماعية والنفسية الناجم عن غياب الأب عن محيطه الاجتماعي لفترات طويلة.

ذلك أنّ هذا الواقع كثيرا ما يدفعنا للاستنجاد بالدراسات الاجتماعية والنفسية الحديثة الكاشفة لطبيعة الواقع النفسي والاحتياجات الاجتماعية التي تبني حياة الطفل بناءً سليما، وتعينه على ملامسة الاستقرار النفسي والراحة والأمن الاجتماعي، وتميط اللثام عن حاجاته ومتطلباته وسقف رغباته، وهو الجانب البحثي الذي لا نجد صداه في جسم النص المصدري الذي احتفظ بحوادث التاريخ الاجتماعي في الفترة مدار الدرس، بل عكفت الدراسات والبحوث الأكاديمية على معالجة إشكالياته حديثا فقط، تماشيا والتطور الذي تشهده البشرية في العصر الحالي.

وعليه، فإذا كانت المادة المصدرية لم تفصح بما فيه الكفاية عن طبيعة الأسباب الكامنة وراء خروج الأزواج أو الآباء وغيابهم المطول عن أسرهم في الفترة المخصصة للدراسة؛ فإنّ الصعوبة تزداد تفاقما حين يُرام معرفة آثار ذلك الغياب على حياة الطفل الاجتماعية، ومخلفاته على مسار حياته الطبيعي وأمنه النفسي والعاطفي، ولئن كان صاحب الدراسة الموسومة بالحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر الميرني¹⁰، يعتقد أنّ دافع الخروج للغزو والحرب الذي أورده المادة النوازلية¹¹ إلى صف دوافع السفر للتجارة والاتجاه إلى المشرق لأداء فريضة الحج، يعدّ من أبرز أسباب غياب الأزواج عن أهلهم وذوهم وأبنائهم مُددا طوال ومسافات زمنية واسعة، ويتصدّر قائمة

ذلك الغياب؛ فإننا نعتقد كذلك أنّ الخروج للرحلة العلمية وللتجارة من طرف الأزواج يحتل موضعاً أساسياً هو الآخر ضمن قائمة تلك الدوافع، كما نعتقد أنّ الطفل لم ينج هو الآخر من المخلفات السيئة لهذا الغياب الطويل، تلك التي يمكن أن تطال الحياة الاجتماعية للعائلة؛ ذلك أنّ الوقع الأكبر يمكن أن يثقل كاهل الزوجة التي تتحمّل أعباء المسؤولية الاجتماعية في فترة غيابه، ومع ذلك يتقاسم الأولاد معها نصيبها في المعاناة زمن ذلك الغياب إذا طال.

وحى نتجنّب الوقوع في فخ المبالغة، كان لزاماً الإشارة إلى أنّ العائلة المغرب أوسطية في الحقبة مجال المدارس كانت في الغالب تصبر على فترة الغياب الأبوي، وتتصرف بشكل عادي في فترة ذلك الغياب متأقلمة مع العُرف الساري، والنمط الحياتي-الاجتماعي الذي تصطبغ به حياة تنقل الزوج وغيابه المتكرر إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت الزوجة تحرص في غيابه على أن تكفل أبناءها على أحسن وجه، وتُقوّي من جهدها ليستوعبوا أسباب غياب الأب.

ومن ثمّ، كانت الزوجة تسعى بكل ما أوتيت من إمكانيات مادية، وما حازته من مقومات معرفية لخلق جو اجتماعي مناسب لتنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية سليمة، وتوفير المناخ الملائم لذلك، تستثمر المقومات المادية المتاحة، وتصبر إن أصابها الخصاص، وتتدبّر الأمور حتى يرجع المعيل، ولعلّ من أبرز ما يصدق على ما أوردنا أنّ عائلة الحباك (ت613هـ/1217م) صبرت صبرا جميلا حين رحيله عنها، وتركه الفضاء البجائي مدة زهاء أربعة أعوام بعد دخوله تيار التصوف¹²، كما سهرت والدته إبراهيم الغول المسيلي (ق8هـ/14م) على حسن رعايته، إذ يذكر الحفناوي أنّه: "تواتر أنّ إبراهيم الغول تركه أبوه في بطن أمه، وأوصاها بتسميته باسمه إن لم يرجع إليها قبل سنة، وسافر يريد حجّ بيت الله الحرام"؛ فعملت بوصيته¹³، ولمّا توفيت أمه "تركته في كفالة أخيها، وربّته أم سيدي عيسى بن محمد"¹⁴.

ولئن كانت هناك حالات اجتماعية تنطق بواقع من المعاناة عايشته شريحة الطفولة في ظل غياب الأب عن محيطه الأسري، ولو أنّها معدودة أو محدودة؛ فإنّ من أبرز ما وقفنا عليه من مشاهد كاشفة لذلك، ما يوضحه العرض الموالي:

1.2 تحمل المسؤولية الأبوية في سنّ مبكّرة: من المشاكل الاجتماعية التي طرحت نفسها في حقل قضايا المجتمع بالمغرب الأوسط ما تعلّق بما يطال حياة الطفل من أعباء اجتماعية لا تتناغم وسنّه أو مرحلته العُمرية، ونقصه بذلك اضطراره بوظيفة الأب في حال غيابه عن وسطه العائلي وانشغاله عن أسرته، حيث يقتحم ميدان الوظيفة الاجتماعية في سنّ مبكّرة من حياته، ويتحمل أعباء مسؤولية فوق طاقته العُمرية، بشكل اضطراري تفرضه عليه الظرفية الاجتماعية التي أنتجها غياب الولي والقائم على شؤون الأسرة.

ولئن كان هذا التحمّل الاضطراري من طرف الطفل للمسؤولية الاجتماعية من شأنه أن يخفّف من حجم الأعباء الاجتماعية التي تتحمّلها الأم، ويكون مُعينا لأمه على إدارة الأسرة، ومدّد يد العون لتلبية حاجاتها ومتطلباته وحاجات إخوته، وينبئ في ذات الوقت عن شعور الطفل بحجم المسؤولية الاجتماعية الملقاة على كاهل أمه، ومستوى الفراغ الذي خلفه غياب والده عن محيطه العائلي؛ فإنّ ذلك الشعور والإحساس بروح المسؤولية، والمبادرة للاضطلاع بمهامها وتضحيتها بصحته، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلغي حجم المساوئ والانعكاسات السلبية التي تنجم عن تحمّل الطفل لأعباء المسؤولية في مرحلة عُمرية لا تستجيب لحجم تلك المسؤولية، ولا تتجاوب وأعباءها عقلا وجسما.

وعليه، لا نجد حرجا في اعتماد النوازل التي طرقت قضايا الأسرة ومشكلاتها الناجمة عن الغياب المفرط للزوج عن حليلته أو زوجته في كشف جانب من واقع المعاناة التي يتكبّدها الطفل؛ ذلك أنّ الطفل جزء من الأسرة، ومعاناة الأم يعني معاناة وليدها هو الآخر، وتضرره مما تتضرر منه في المنحى الاجتماعي، ونحسب أنّ المسائل التي أثارها المصنفات النوازلية المتعلقة بتشخيص الواقع التآزمي الذي تنوّعت تحت سقفه بعض الزوجات نتيجة الغياب الفاحش لأزواجهن عن بيت الزوجية للحرب أو الحج والتجارة والرحلة العلمية، والكاشفة لواقع التذمر الذي عبّرت عنه بعضهن وطبيعة الحلول الاستعجالية والظرفية التي استنجدت بها بعضهن من قبيل: اشتراط الزوجة على زوجها في عقد القران أن ألا يغيب عنها غيبة قريبة ولا بعيدة طائعا أو مكرها قبل البناء أو بعده أزيد من ستة أشهر، أو شرطت على الزوج أن لا يخرجها من بلدها¹⁵، وعرض مسائلهن

على القضاء ليفصل فيها كطلب الطلاق من زوجات غاب عنهن أزواجهن غيبة طويلة بسبب الحرب أو نحوها من أسباب الغيبة، ورفضهن النفقة من أهل أزواجهن على أولادهن عوضاً عن أزواجهن، ورغبتهم من جهة أخرى في الزواج كمخرج من الواقع المتأزم الذي يرزحن تحت وطأته¹⁶، أو اللواتي أقدمن على الزواج حين طال غياب أزواجهن مستنجدات بسلطة القضاء¹⁷: تعدّ ظرفية اجتماعية صعبة توجي بواقع من حياة المعاناة الاجتماعية التي يتخبط بين نسيجها أطفال تلك الأسر.

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ شعور الابن بروح المسؤولية الأسرية في سن مبكرة من حياته العمرية لا يندرج في خانة السلبية فحسب، وإنّما ينطوي على قسط ولو محدود من نسبة الإيجابية؛ ذلك أنّ الطفل يكتسب شخصية قوية تمكّنه من الاستعداد لخوض غمار الحياة بكل أثقالها، وفهم مبكر لمنظومة أعبائها ومسؤولياتها.

2.2 تشغيل الأطفال: لا يعترينا الشكّ في أنّ تعليم الأطفال كان الهدف الأسى الذي تصبو إليه أي أسرة بالمغرب الأوسط لتمكينهم من بناء شخصية علمية قوية، واجتماعية فاعلة قادرة على تحمّل المسؤوليات، وترك بصماتها الإيجابية في الحقل الحياتي، وملامسة الأمان المستقبلي، بيد أنّ ذلك لا يعني أنّ الطفل لم يقتحم سوق الشغل تحت طائل ظروف اجتماعية واقتصادية قاهرة تبرّر الصنيع، وتكشف مستويات الحاجة التي اضطرت الأسرة لذلك؛ فعلى اعتبار أنّ انشغال الأب عن أسرته وأولاده وحليلته، وهجران محيطهم لمدة زمنية معتبرة تنقطع أخباره عنهم دون أن يترك من يُعينهم على تلبية حاجاتهم، وسدّ متطلباتهم من قبيل:

ابن قادر على رعاية الأسرة في غيابه إلى حين رجوعه أو مصدر دخل من تجارة أو مال مدخر ونحو ذلك ممّا تستعين به زوجته وبنيه في الإنفاق وقضاء الحوائج في فترة غيابه، كان يُفضي إلى انتاج ظرفية مادية حرجة تتخبط في شباكها أسرته لاسيّما أولاده؛ ذلك أنّ الزوجة في البعض من الحالات التي طالت غيبة زوجها عنها وجدناها- كما هو قار بين أحشاء نصوص المادة النوازلية- تلجأ إلى القاضي ليفسخ عقدها مع زوجها الغائب وتنزج بغيره، أمّا الأولاد فإن صادف واقعهم الاجتماعي في ظل غياب الأب عن محيطه العائلي ظرفية متأزمة شأن التي ذكرنا من وضعية الفقر والعوز والعالَة؛ فإنّ حجم وطأة المعاناة تكون على كاهلهم أشدّ وأنكى.

وعليه، فإنّ أطفال بعض العائلات التي غاب عنها مُعيلها غيبة معتبرة، كانوا يلجأون إلى اقتحام عالم الشغل، وهم في مرحلة عُمرية لا تسمح لهم بذلك، ولا تؤهلهم للاضطلاع بتلك الوظيفة عقلا وجسما، ولا وراء أنّ ولوج الطفل عالم الشغل في مرحلته العُمرية تلك، له في الغالب الأعم من سوء التبعات على حياته الاجتماعية ماله؛ فهو يؤثر سلبا في مسارات تكوينه النفسي-الاجتماعي والجسمي-العضلي؛ ذلك أنّه لا يطبق القيام بالجهد العضلي الشاق، ولا يصمد أمام مستويات الإرهاق العالية، فضلا عن أنّه يصرف نظره إلى أمور لم يحن أوانها على حساب الأهم، أو ما ينبغي أن يصرفه إليه في ذلك السن من مراحل التكوين في حياته كالتعلّم وحفظ القرآن¹⁸.

وكان من أبرز المجالات التي دخلها الطفل للعمل: أسواق الأقمشة، والعمل في الخياطة والحياكة، وأسواق النخاسة والجزارة، ورعاية الماشية، والتنظيف، وتعبئة الخضر والفواكه ومختلف المنتوجات الزراعية في مواسم الحصاد، وغيرها من الأنشطة التي تتناسب في الغالب وطبيعة جسمه ومستوى عمره¹⁹.

ولئن كانت المادة المصدريّة التي شكّلت أكبر ملاذ يستنجد به الباحث وهو يتجشّم عناء البحث في مواضيع تتعلّق بتفاصيل الحياة الاجتماعية للأسرة المغرب أوسطية خلال فترة الدراسة هي كتب النوازل والمدونات الفقهية؛ التي طرقت جانبا من ذلك الواقع الاجتماعي في مواطن من بحر نصوصها في ألوان من الغاية تخدم البحث الفقهي النوازلي وليس التاريخي، أو نقول أشارت إليها في سياق معالجة المسائل الفقهية التي طُرِجت للنظر الشرعي بشأنها، والفصل وفق أحكامه فيها، وليس بغرض التأريخ وتشريح الواقع الاجتماعي الذي عاشته الساكنة في الفترة مدار الدرس؛ فإنّ نصوص النوازل حتى وإن احتفظت بمادة تعين على معالجة بعض القضايا الاجتماعية إلا أنّ حصة الأسد من ذلك اختصت بالإشارة- عن غير قصد تأريخي- إلى جوانب من قضايا المرأة؛ كطلبها الطلاق في غيبة زوجها مُددا طوال، أو جهلها زمن رجوعه²⁰.

وقد أحسن حميد تيتاو القول حين علّق على ما تضمّنته النوازل في هذا الصدد، بأنّ الأمر يتعلّق بحالات فردية ومتفرقة لنساء غاب عنهن أزواجهن، وأصبحن يطلبن البثّ في حالاتهن لما نالهن من العوز والفاقة²¹، أو تعبيرها عن قلقها من الواقع الاجتماعي العصيب الذي باتت تعيشه في ظل غياب الزوج، كما عبّرت عنه المسائل التي اختصت

بعرض حالها في متون كتب النوازل ومدونات الفقه، شأن ما تفصح عنه العبارات الدالة على ذلك على نسق: "في ضيق من الحال"، "في ضيق من المال"، "ليس في البلاد من يقوم بها"، "خافت على نفسها وحالها الفقر" و"هي محتاجة"²²، أمّا ما تعلّق بواقع شريحة الطفولة الاجتماعي زمن غياب الوالد، وانشغاله بأمور العلم، وسفره في طلبه لمسافات زمنية طويلة؛ فإنّ الإشارات التي تضمّنتها المادة النوازلية شحيحة بشكل كبير، ونحن لا نعيب على أصحابها ذلك طبعاً؛ ذلك أنّه ليس ميدان اختصاصها بقدر ما نروم التنويه بالفقر المدقع الذي يصطدم به الباحث في تاريخ الحياة الاجتماعية لشريحة الطفولة في المغرب الوسيط.

لذلك نعتقد أنّه لا حرج إن استنجدنا بسبيل إسقاط واقع عام على كافة العناصر المجتمعية التي عاشت تحت سقفه، من قبيل: أنّ نحتمل على سبيل المثال: أنّ ما عايشته الأمّ- الزوجة من مظاهر الخصاصة والعوز والعالّة في فترة غياب زوجها لا يختلف كثيراً عمّا عايشه أطفالها وهم بمعيّتها تحت سقف عائلي واحد، أو أنّ نحتمل أنّ ما أفصحت عنه تلك النصوص من واقع المعاناة، وحجم الحاجة التي تخبّطت في شباكها المرأة- الزوجة وأولادها حين انقطع عنها زوجها، وانشغل بأمور الحروب والحصارات لمدة زمنية طويلة، ولم يترك من خلفه معينا، ولا من يقوم على شؤون بيته وعائلته، أنّه يمكن أن ينطبق على الأمّ- الزوجة وأطفالها الذين غاب عنهم ربّ الأسرة غيبة طويلة إذا لم يترك من هو مؤهل ليعيل عائلته، ولم تكن زوجاتهم من أصحاب الثروة والجاه والتجارة²³.

ونحسب أنّ ما أشار إليه الونشريسي في معياره يُقوي ما نهدف إليه؛ وذلك على سبيل المثال في النازلة التي مؤدّاها: أنّ أبا عبد الله المازري سئل عمّن "غاب بالأندلس وترك زوجة وطفلة منها وطفلا من غيرها مطلقة؛ فلما كان الآن أنفذ سبعة دنانير في المركب الأول، واثنى عشر في المركب الثاني، ولم يترك لأولاده وزوجته نفقة؛ فقامت أم الطفل تريد مخاصمة الزوجة والابنة برزق ابنها"²⁴.

في ذات السياق، تحتفظ لنا كتب التراجم والمصنفات المنقبية بمادة تراجمية تكشف بصيصا من واقع حياة النخبة المترجم لها في مرحلة الطفولة؛ فابن مريم التلمساني على سبيل المثال وهو يُترجم للشيخ أحمد بن محمد ابن زكري التلمساني

(ت899هـ)، ويستعرض جانباً من طفولته، أشار إلى أنّ هذا الأصولي البياني المنطقي مات أبوه وتركه صبياً في حضانة أمّه، ونظراً للوضع الاجتماعي-المالية الصعبة التي تعيشها أسرته، أرسلته أمّه ليتعلّم الصنعة؛ حيث أدخلته في طراز يتعلّم الحياكة عند معلم في تلمسان، وبقي عند ذلك المعلم حتى تعلم النسيج²⁵.

وأفادنا ابن مريم التلمساني بأمر مهم في هذا الشأن يتعلّق بأنّ الشيخ الولي الصوفي أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوي التلمساني (782-845هـ) زار المكان الذي يتعلّم فيه ابن زكري فتكلّم مع الأخير، ودار بينهما حديث حتى انتهى الأمر إلى أنّ بن زكري ذهب إلى المجلس الذي يدرس فيه بن زاغو تلامذته، وسمع منه مسألة فقهية لم يفهمها طلبته لكن ابن زكري فهمها، وعند ذلك سأله بن زاغو عن حالته الاجتماعية؛ فأخبره أنّه يتيم الأب وأمّه هي من ترعاه، وعن قيمة أجرته في تلك الصنعة فأجابته أنّه نصف دينار في الشهر؛ فقال ابن زاغو أنا أعطيك نصف دينار في الشهر وتتوقف عن العمل، وتنشغل بالعلم والقراءة؛ فوافقه إلى ذلك²⁶، كما أورد صاحب البستان في مصنّفه: أنّ الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق (846-899هـ) عاش يتيماً في كفالة جدّته، التي أدخلته الصنعة في عمر العاشرة بعدما حفظ القرآن؛ فتعلّم صناعة الخرز²⁷؛ فهذه الحادثة حتى وإن لا تتناغم بشكل تامّ مع مسعانا البحثي هذا، لكون الوالد مات وليس غاب للعلم، فإنّها ترسم جانباً من واقع معاناة الطفل، وانخراطه في عالم الشغل في سنّ لا تسمح له على حساب الاهتمام بطلب العلم والقراءة.

كما أنّه من الجدير الإشارة، إلى أنّ هناك من أهل العلم والرحلة لتحصيله والتبحّر في فنونه، من كان يصطحب ابنه معه في رحلته العلمية يلزمه خلال مساراتها، ولئن كان في هذا الصنيع من أثقال الجهد الكبير الذي يتكبّده الطفل في رحلته مع أبيه، ومعاناته من وعثاء السفر؛ فإنّ فيه من الفوائد العلمية الجمة التي يجنيها في هذه الرحلة، وكذا انعكاساتها الإيجابية على مسار تكوينه الجسدي والنفسي، ومما وقفنا عليه في هذا الصدد، ما حدث مع والد ابن مرزوق (ت781هـ/1379م) الذي ارتحل معه ابنه إلى بلاد المشرق، وابنه طفلاً صغيراً لم يتجاوز ثماني سنوات؛ وذلك في مسعى اكتساب المعارف الجديدة، والوقوف على ثقافات متلونة في البلاد التي زاروها²⁸.

3.2 الفراغ الاجتماعي-الأسري: إذا كانت الأزمات الناجمة عن ظروف الحرب وترسباتها لم تستثن بمخلفاتها السيئة أي شريحة اجتماعية أو عمرية؛ ذلك أنّ شريحة الطفولة حتى وإن لم تكن مستهدفة ضمن قائمة الأهداف الحربية المباشرة؛ فإنّ انشغال الأبوين بأمور الحرب، وتضرّرهم تحت وطأتها كان وقع الضرر يمتد ليطل حياة الطفل الاجتماعية ويعصف بها؛ فإنّ مشكل الانشغال عن الأهل لم يقتصر على ظرفية الحرب وأزماتها، وإنّما كانت أسباب انشغال الأب عن أهله وعائلته في مغرب الحقبة المدروسة متعددة، ومنها الترحال في طلب العلم سيما إذا طالت مدة غيابه، ويحتمل أنّ البعض من أطفال عائلات أولئك الرحالة قد عانوا من الفقر والخصاصة على غرار الأمهات أو الزوجات، وإن كنّا قد نبشنا في هذه الإشكالية عدّة مرات في بحر دراستنا هذه؛ فإنّ غايتنا على كاهل هذا المبحث تنحصر في كشف جانب من معاناة الطفل المتمثلة في شعوره بالفراغ الأسري- الاجتماعي، حين ينشأ الطفل ووالده غائب عن ناظره، وأمه هي من تتحمّل- في الغالب- مسؤولية إدارة شؤون البيت، ووظيفة تحصيل المال ومسألة الإنفاق والمصاريف. وإذا كان الغياب المطول للأب عن حليلته وأسرته قد ساهم في البعض من الحالات في نمو نبات النزاع الزوجي، وإيجاد تربة خصبة لنمو المشاكل الأسرية كمشكل التطبيق الذي كانت بعض الزوجات ترفعه إلى سلطة القضاء بحكم الإعسار في النفقة وضرر المغيب²⁹؛ فإنّ لهذه المشاكل ضلع واسع في تنامي حدّة التأثيرات السيئة على الحياة العائلية للطفل؛ فقد يفقد أمنه العاطفي- الاجتماعي إذا كان أبوه غائبا ثم تزوجت أمه برجل آخر، ويلحقه التفريط الأبوي (من الطرفين) في جانب الرعاية الاجتماعية، وتزداد فجوة الشعور بالفراغ الاجتماعي اتساعا وتأثيراتها السلبية على نفسيته تفاقمًا؛ وحتى وإن لم تفصح المادة المصدريّة بشكل صريح عن وجود متاعب على حياة الطفل خلفها الغياب الأبوي المفرط في الرحلة العلمية؛ فلا يعني ذلك التوفيق المطلق والتام من طالب العلم، وهو ربّ أسرة في آن بين الوظيفة الاجتماعية ومساعدته في طلب العلم والرحلة إليه في البلاد شرقا وغربا، وإنّما قد يشوب مسعاه النقص وتغليب أمر على آخر، ولسنا نذكر هذا عن أهل العلم من باب النقيصة، وإنّما من باب بيان صعوبة التوفيق بين الأمرين، وكشف طبيعة الحدث وحقيقته.

في حالة اجتماعية تصبّ في نفس وعاء المبتغى، يضعنا ابن الزيات أمام واقع اجتماعي عصيب خلفه تخلي الزوج عن مسؤولياته تجاه زوجته وأولاده وانقطاعه لأمر العلم، وهو ما يصدق على حالة أبي عمر بن العباس الصنهاجي المعروف بالحباك (ت613هـ/1216م) الذي قال لزوجته: "إن لم توافقيني في هذا فعديني ميتا؛ فخرجت عنها وتركت جميع مالي، وغبت عن تلمسان أربعة أعوام"³⁰.

كما أنّه من الملاحظات التي يحسن بنا أن لا نغفل عن ذكرها، ما تعلق بكون عامل التصوف والزهد، والانقطاع عن الحياة الاجتماعية لصالح الحياة التبعديّة، ساهم هو الآخر في خلق فراغ اجتماعي عانت منه بعض الأسر المغربية في الحقبة الوسيطة، ونقصد بذلك أولئك الذين تزوّجوا، وانقطعوا عن زوجاتهم وأولادهم، بل إنّ هناك من طلق زوجته، وتخلّى عن أولاده، وانشغل بأمور العبادة والتصوف، ولئن كانت المادة المصدرية لم تحتفظ لنا- في حدود ما نعلم وما وقفنا عليه طبعاً- بنصوص كاشفة لانعكاسات ذلك الانقطاع على مسار حياة أبنائهم الاجتماعية وتنشئتهم، ومخلفاته على حياتهم النفسية؛ فإنّ ذلك الصمت لا يعدّ بأي حال من الأحوال مؤشراً على انعدام حالات تنطق بمستويات ولو جدّ محدودة لحجم معاناة وتأثيرات سلبية خلفها انقطاع الولي عن أسرته، وتفريطه- ولو دون نقص- في أحد أهمّ واجباته الاجتماعية³¹.

ففي مشهد اجتماعي قريب الصلة من طرحنا هذا، أطلعنا ابن مريم التلمساني على نص في مسعاه التراجمي لأولياء تلمسان وشيوخها، كشف على ضوئه جانباً من عزوف بعض متصوفة وأولياء المغرب الأوسط عن بناء أسرة، وتفرّغهم للعبادة والإصلاح الاجتماعي، وممّا استوقفنا عنده في هذه المحطة: أنّ الأمر بلغ بأحدهم أن فرّح بموت ولديه؛ وذلك أنّه عندما كان ابن مريم يستعرض سيرة الشيخ محمد بن عمر الهواري (ت843هـ/1439م)، أورد بأنّه طرحت مسألة في العلم على الأخير وهو بوهران؛ فأجاب: أنّه كان ينبغي أن تُطرح هذه المسألة على محمد ابن مرزوق، وهو من يُجيب عنها فهو ليس عنده ولد، وقد تعجّب من حضر من قوله: "ليس له ولد"، وهو عنده ولدان، ثمّ بعد تفصيل من صاحب الرواية، ذكر: أنّ ابن مرزوق لما بلغه قول الهواري قال: "الحمد لله الذي أراحني منهما يعني من ولديه، وفهم من قول الشيخ أنّه كُوشِفَ بعدم بقاءهما، وأنّهما يموتان عن قريب؛ فكان الأمر كذلك"³².

4.2 هاجس الفقر والخصاص المالي: بالإضافة للجوء الطفل الاضطرابي لولوج عالم الشغل في سن لا تسمح له بذلك جسميا ونفسيا، ساهم ذلك الغياب الفاحش في توسيع دائرة الأزمة، لتشمل ما يطاله من أثقال الفقر والحاجة للمال، ذلك أنه ليس كل الأطفال تُتاح لهم فرصة الشغل من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الطفل في مرحلة معينة من طفولته يكون في حاجة شديدة للاعتماد على من حوله، ولا غنى له عن الاعتماد على والديه أو الكبير³³، وإذا غاب عنه السند الذي يتكئ عليه نفسيا خارج البيت ويعتمد عليه، يكون الطفل أكثر قابلية للتأثر بالظروف الصعبة المحيطة به وعدم الصمود أمامها، ومن ضمنها أزمة العوز المالي أو الفقر والحاجة؛ وذلك حين يشاهد أقرانه يعيشون واقعا اجتماعيا أفضل بكثير مما يفتقره هو، ويقع تحت سقفه، ويعجز عن تلبية حاجاته الاجتماعية ورغباته المتنوعة، ويصطدم بعوائق تحول دون مطالبه.

ولعلّ من بين ما يُقوّي طرحنا هذا ما يكشفه حرص الزوجة في الفترة مدار الدرس الاشتراط على زوجها النفقة على الابن الصغير لمدة معلومة، حيث ذكر الونشريسي: أنّ القاضي أبا بكر بن زرب سئل عن رجل تزوّج امرأة لها ابن صغير؛ فشرطت على زوجها أن ينفق على ابنها خمسة أعوام أو أكثر³⁴، ويُعلّل تخوفها هذا بعدّة أمور منها: خوفها من سفر الزوج المطول أو انقطاعه عن أسرته وانشغاله عنها ونحو ذلك.

وقد لا نستبعد ولو بقدر محدود أن يغرق الطفل في الخيال والأوهام، ويشعر بالنقص والاضطراب، وكلّها عوامل تؤثّر سلبا في بناء شخصيته الجسمية، فضلا عما يعانيه نفسيا، ويشعر به من نقص وضعف، وكذا شعوره بالتضارب مع بيئته، وتفريط أبوي في توفير المناخ الاجتماعي المناسب لخوض غمار حياته، خصوصا وأنّ الطفل كما يقول علماء النفس لا يستطيع- في ظل تلك الظرفية الصعبة- أن يتحكّم في انفعالاته أو حتى أن يخفف منها³⁵.

ولو توقفنا عند إحدى الروايات التي ساقها ابن مريم التلمساني، وهو يترجم لأحد شيوخ تلمسان وأولياؤها الشيخ الحسن أبركان (ت857هـ/1453م)، للمسنا جانبا من ضيق العيش الذي عايشته أسرته في مسعاه الزهدي، وتفرّغه للعبادة وإصلاح مشاكل المجتمع، إذ يذكر: أنّ "أصحابه وولده رأوا ضيق منزله"، ومن ثمّ ضيق أحواله³⁶، وكذلك محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1489م) الذي قالت "له زوجته وما الذي أمرت

بتركه"³⁷، وكذلك الشيخ محمد بن عبد الجبار بن ميمون الفجيجي (ت905هـ/1499م) الذي قالت "له زوجته ما عندنا ما نطعم الضياف"³⁸، أو ما ذكره الونشريسي بشأن "من سافر إلى المشرق، وترك أم ولد لها بنت بدون نفقة؛ فقامت أم الولد بحقها وأرادت العتق"³⁹، و"من أثبتت غيبة زوجها وعدم نفقتها"⁴⁰، والمرأة التي "أقامت شاهداً على أن ولدها في نفقتها إلى أن توفي والده وهو غائب عنه"⁴¹.

في هذا الصدد لا تفوتنا الإشارة إلى مشكلة عدم قدرة المشرف أو الأمّ على شؤون الأسرة كتوفير بعض متطلبات الطفل في مجال التربية والتعليم، ومن ذلك: ما اختصّ بتوفير الأدوات المدرسية، ومما يؤكد هذا الترخيص ما رواه محمد السنوسي عن والده الذي كان في صغره يقرأ مع الأولاد، ولا يملك أدوات مدرسية، وفي أحد الأيام وهو في خلوته في الصحراء دعا الله أن يرزقه تلك الأدوات، وكان من كرامته أن انشقت الأرض وأخرجت له ما أراد⁴²؛ فحال هذا الطفل حقيقة ليست كحال الطفل الذي يدرس في جو عائلي منسجم شأن على سبيل المثال عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني الحسني (748-792هـ) الذي قرأ بفاس وأبوه بها، فظهرت نجابته وحفظ القرآن، "ثمّ أقبل أبوه عليه، وقد كملت هيئته بقبول الحقائق وفهم الدقائق؛ فقرأ عليه في الأصول والاقتصاد"⁴³، كما أورد المازوني نازلة تفيد بأنّ هناك من الأمهات من حرصن على توفير الأجرة لتدريس أولادهن كصناعة العجين وبيعه، وتأجير المدرسين والمعلمين⁴⁴، وهو ما يوحى بغياب الأب عن فضائه الأسري غيبة طويلة أو انقطع بشكل نهائي للحرب أو الحج والعلم والتجارة.

وعليه، فعلى الأب (أو الوالدين بشكل أساس)، كما توصّلت إليه الدراسات النفسية- التربوية، أن يلعب دوراً محورياً في تنمية شعور الطفل بالكفاءة، والوصول به إلى الأساس الضروري للنمو السوي في هذه المرحلة والمرحلة الموالية، ومدّ يد العون للطفل خلالها للقيام بواجبات النمو على أكمل وجه، وإكسابه قدراً عالياً من الثقة في النفس والمحيط الاجتماعي، وتوفير الأرضية الخصبة التي تمكّنه من التصرف بشكل استقلالي، وتشجيعه على ممارسة سلوكه التلقائي⁴⁵.

3. مخلفات الغياب على المستوى النفسي للطفل: في هذه المحطة من البحث، سنحاول- في ظل ما نحوزه من نصّ خبري- الكشف عن مستويات التأثير السلبي الناجم عن غياب

الأب لفترة معتبرة عن محيطه الأسري على نمو ابنه النفسي، وطبيعة التأثيرات الجانبية المحتملة في تكوين شخصيته الوجدانية، وذلك على اعتبار أنّ الطفل يعتمد في مرحلته العمرية تلك بشكل أكبر على والديه أكثر من اعتماده على نفسه، حتى وإن كان في بعض الأمور ينزع إلى الاستقلالية الذاتية فيخوضها أو يبدي رأيه تجاهها، إلا أنّ ذلك لا يكون في كل حالاته، وإنّما يحتوي في ظل الظروف العصيبة بوالديه، ويلجأ في الشدائد إليهما، ولا يشعر بتمام الراحة والأمن والاطمئنان وهما غائبان، أو أحدهما غائب عن حياته، وذلك لاسيما في علاقته العاطفية بينه وبينهم؛ فعلى ضوء ما قرّرت الأبحاث النفسية، وأثبتته الدراسات المتخصصة في المجال الوجداني للطفل، يتجلى لنا بأنّ التفاعل بين الولد ووالديه أو الفئة الحاضنة له، لا يتمّ بشكل فاعل وطبيعي وناجح إلا إذا سار في اتجاه ثنائي أو كان تفاعلا ثنائيا، وليس يسير في اتجاه واحد، أو كان تفاعلا من طرف جهة واحدة تجاه الأخرى؛ فالوليد كما يؤثر في الحاضن يؤثر الحاضن في الوليد.

وعلى هذا الأساس فإنّ غياب الأب المطول، وانشغاله المستمر عن دوره الأبوي من شأنه أن يعطل مسار تلك السيرورة التبادلية الناعمة لجسم العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الطفل ووالده، ونعتقد أنّ لذلك تأثير- ولو نسبي- على أمن الطفل النفسي واستقراره الوجداني؛ فعلى اعتبار أنّ الوالدة أو الأمّ تسهر على جبر ذلك الانقطاع، وتجتهد في تغطية ذلك الغياب بحضورها الفاعل في حياته الاجتماعية ورعايتها لعالمه الوجداني؛ أو كما يُعبّر عنه المختصون بإعادة التوافق المستمر بإشباع حاجات الطفل بشكل كافٍ، والاستجابة المستديمة لممارساته في الوقت المناسب وبطريقة سديدة⁴⁶؛ فإنّ الأمّ إذا لم تُوفّق إلى حدّ كبير في أداء وظيفتها التطبيبية تحت طائل العوز المالي الذي تعانيه، وثقل الأعباء الاجتماعية الملقاة على كاهلها، يُحتمل أن يكون الضرر على نفسية الطفل أشدّ وأقوى.

في هذا السياق تكشف المادة التراجمية أنّ الشيخ محمد بن إبراهيم التلمساني الآبلي (ت757هـ/1355م) لم ينل حلاوة تربية والده؛ حيث نشأ في كفالة جدّه لأمه أبا الحسين ابن غلبون القاضي في تلمسان⁴⁷، مع الإشارة إلى أنّ المادة المصدريّة التي وقفنا عليها لم تفصح عن سبب كفالة الجد للآبلي بدلا عن أبيه؛ فهل يرجع ذلك لموت الوالد أو لانقطاع أخباره، أو لانشغاله بأمور التجارة ونحوها.

كما أنّه من الطبيعي أنّ تنشئة الطفل تنشئة سوية تنبني على كاهل توفير القائمين على الأسرة (الأبوين) المناخ الاجتماعي الملائم والظرفية النفسية المناسبة، وأنّ أي خلل إذا تمادى تكراره وتنامي، أو تفريط إذا اتسعت دائرته واستفحل، من شأنه أن يعصف بالبنیان السليم لتلك التنشئة، ويضرب التوازن النفسي والتكيف الاجتماعي للطفل بشكل متين.

إنّ حضور الأب في حياة الابن بشكل طبيعي يُعين على إتاحة ظرفية اجتماعية ملائمة لحياة الطفل بصورة سوية من حيث توفير متطلباته، ومراقبته الدورية، وتقويم سلوكاته وفقاً للقيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية المنشودة، أو ما يمكن أن نصلح عليه بصقل الضمير وتقويم السلوك الخُلقي، وتقديم الدعم المادي والمعنوي لابنه حين يطلبه أو في كل أوقاته، بيد أنّ الغياب الفاحش عن حياته في هذه المرحلة العمرية الحساسة من حياة الطفل، يمكن أن يسهم في اصطدام الأخير بعقبات على مستوى العاطفة ومشاكل نفسية وعوائق وجدانية لم تلق التضميم الفوري لجراحها، وإذا استفحلت أو تمادى وقوعها، قد تؤثر في شخصية الطفل ومسار نموّه تأثيراً سلبياً؛ كأن يصبح صاحب شخصية عنيفة أو يتحلّى بروح الانتقام للتغلب على الواقع النفسي الذي اصطدم به، أو في حال اصطدم بحواجز حالت بينه وبين تلبية مطامحه ورغباته وإشباع دوافعه، وكذا سعياً منه لفرض نفسه في وسطه الاجتماعي بطرق غير سوية في ظل غياب المرشد والمُقوّم، وغياب التوافق والتفاعل بين الطفل ووالده أو والديه.

وغير بعيد عن مرمانا هذا؛ فقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أنّ الخوف والقلق من المظاهر الانفعالية التي يعانيها الطفل في مرحلته العمرية تلك إذا لم يحظ بالعناية الأبوية الكافية، ولم يلق الرعاية الأبوية الكفيلة ببناء شخصية متوازنة تعينه على تجاوز عقبات المخاوف والقلق التي يصطدم بها الطفل، وذلك على اعتبار أنّ "الخوف استجابة مشتقة من الألم"⁴⁸.

ومن ثمّ لا نستبعد أنّ الطفل الذي ينشأ في بيئة اجتماعية مضطربة يعاني العوز المادي والعاطفي والاجتماعي سيكتسب شخصية تميل إلى العزلة والكآبة، وبالأخصّ إذا تزامن مع معاناة الأم وتدمرها من تلك الغربة التي تعيشها في بيتها مع أبنائها بعيداً عن بعلمها، وكانت تشتكي حالها ومعاناتها لأبنائها، أو تلمس الأبناء أنينها وشعروا به؛ فاستشعار

الطفل لأنين أمه ومعاناتها من الطبيعي أن يكون له تأثير بعيد الغور في المساس بأمنه العاطفي واستقراره النفسي، ورسم معالم شخصية مضطربة⁴⁹.

في ذات السياق، أثّرت مشكلة مهمة في مجال النمو الوجداني السليم للطفل، وهي ذات صلة بالتعلق بالوالدين، ودور ذلك الرابط في نمو ولدتهما النفسي: ذلك أنّ الطفل إذا فشل في بناء علاقة انفعالية اجتماعية وثيقة وأمنة مع أفراد أسرته في مرحلة الطفولة الأولى؛ فإنه يجد صعوبة في تحصيل مادة من الثقة والأمان اللازم للامسة نمو سليم في المراحل العمرية اللاحقة من طفولته، ولا يستطيع أن يستكشف بيئته الاجتماعية بشكل طبيعي⁵⁰.

الخاتمة: على ضوء هذا الجهد البحثي، كان من بين أهم ما تمّ رصده كاستنتاجات بحثية نُدّيل بها ورقتنا البحثية هذه، ما نورد ملخصه في النقاط الموالية:

على الرغم ممّا وقفنا عليه من مادة تكشف جانباً من معاناة الطفل بالمغرب الأوسط في الفترة المخصصة للدراسة في ظل انشغال والده عن أمور الأسرة وشؤونها المتلونة؛ فإنّ ذلك لا يعني أنّ ذلك ينسحب على فئة عريضة من حياة الطفولة بالفترة مدار الدرس، بل يعدّ مشهداً كاشفاً لحالات معدودة وعيّنات ضيقة تكاد تذوب أمام القيم الاجتماعية النبيلة التي حافظ عليها المجتمع من قبيل صور التكافل والتضامن والترابط الأسري والاجتماعي.

يحتاج الطفل إلى عناية أبوية اجتماعية ونفسية زائدة، وحضوراً قوياً في حياة أولاده في مرحلة الطفولة: حضوراً يُعين على بناء سليم لشخصيته، وكفيل بمرافقته دورياً لتقييم سلوكياته الانفعالية والاجتماعية، وقيادته لحيازة ضمير سوي، ومنظومة خلقية قويمة ومتوازنة، وشخصية سوية وقوية ومتكاملة.

هذا ويساهم الأب بحضوره في حياة أبنائه الاجتماعية والنفسية مساهمة فاعلة في إرساء قواعد شخصية تسمح بتخطّيم مواطن الشعور بالزعة الاستقلالية في أداء الواجبات وتحمل المسؤوليات، والانفصال العاطفي لحيازة الشعور بالقدرة على تحمل الأعباء الملقاة على كاهلهم، وحسن الاضطلاع بها بصفة ذاتية واستقلال معنوي؛ أي انتقال سلس في أداء دورهم بشكل منفصل دون أن ينقطع حبل الرقابة الأبوية.

وممّا يوصى به في هذا الصدد ضرورة اجتهاد الأب في توفير مناخ نفسي واجتماعي كفيل بحضانة أولاده في حال انقطاعه عن وسطه العائلي لمدة زمنية معتبرة في سبيل تحصيل العلم أو نحوه؛ أي السعي الحثيث للامسة التوازن بين كفتي المسؤولية الأبوية النفسية والاجتماعية، من حيث تلبية حاجات الأولاد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ أي بنفسه أو من ينوب عنه، دون إشعار الأبناء بالفراغ الاجتماعي والنفسي، كأن يترك زوجته وأسرته ضمن مناخ أسري

كعائلة موسعة يشرف على إدارتها الجدّ أو غيره ممن يخوّل له الشرع القيام بذلك، ونحو ذلك من مقومات المناخ الاجتماعي الكفيل برعاية الأبناء رعاية اجتماعية طبيعية.

الهوامش:

- 1- في هذا السياق أثار ابن خلدون مسألة مهمة تتعلق بدور الوالدين في صناعة شخصية وليدهما، ومدى قدرتهما على ترك بصمات حية في تلك الشخصية. انظر: ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن اليمث، القاهرة، 1426هـ/2005م، ص475/محمد إسماعيل، الأطفال امرأة المجتمع الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986، ص27.
- 2- الشربيني زكريا ويسرية صادق، تنشئة الطفل وسبل الوالدين في معاملته ومواجهة مشكلاته، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1421هـ/2000م، ص213.
- 3- ولعلّه يتناغم وما كشف عنه ابن خلدون بشأن دور الوالدية في توجيه اهتمامات الطفل الدراسية في مرحلة الطفولة؛ وذلك بتحفيظه القرآن ومتون الشعر. وأضاف بوتشيش: بأن معظم الآباء في مغرب العصر الوسيط كانوا وحسن نية يحدّون من طموحات أبنائهم حين يمنعونهم عن الالتحاق بمجالس الدرس ودفعهم للعمل، انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ص740، بوتشيش إبراهيم الفادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص59.
- 4- ومن أبرز علماء المغرب الأوسط الذين ذكرت المصادر أنهم ارتحلوا في طلب الطلب، وجابوا البلاد الإسلامية لتحصيله، دون أن تفصل في المدد التي قضوها، وحالهم الاجتماعية- الأسرية، نذكر: أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي (506-652هـ)، عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السطاح (ت 629هـ/1215م)، أحمد بن هلال العروضي الجزائري (ت 640هـ/1242م)، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (986-1040هـ)، انظر العباس بن إبراهيم السامي، الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، راجعه عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1414هـ/1993م، ج2 ص8-13/الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيب فونطانة، الجزائر، 1324هـ/1906م، ج2 ص283/بريكة مسعود، النخبة والسلطة في بجاية الحفصية، رسالة ماجستير في تاريخ حضارة المغرب الأوسط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1429-1430هـ/2008-2009م، ص90. للمزيد من التفصيل حول أسباب الرحلة ومقاصدها، وأبرز الرحالة، انظر الناجي، لمن، 1437هـ/2016م، رحلات علماء المغاربة الأقصى والأوسط الملكية وأثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، القاهرة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، عواطف محمد نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض، السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1417هـ/1996م.
- 5- ونحسب أنّ أكبر أثر نفسي هو ذلك الذي تخلفه الحرب على نفسية الطفل، ذلك أنّ التأثير لا يقتصر على شريحة الكبار، وإنما ينسحب أيضا على فئة الأطفال.6- ابن خلدون، المصدر السابق، ص316، ولقد فصلت في هذا عديد الدراسات النفسية الحديثة، ومن ذلك ما أشار إليه الباحث: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص27-29.7- للوقوف على خفايا ذلك التأثير وطبيعته، انظر محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص28-8. الونشريسي أحمد، المعيار المغربي والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، ج4، إخراج محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م، ص48-9. المصدر نفسه، ج4، ص72-10. تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات عكاظ، المغرب، (د.ط)، 2010، ص386.
- 11- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص12/ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تج دوروتيا كرافولسكي، ط1، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، 1407هـ/1986م، ص143-12. الحفناوي، المرجع السابق، ج2، ص250.
- 13- ابن مريم محمد التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ج1، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1336هـ/1908م، ص30/الحفناوي، المرجع السابق، ص18-20.14. الحفناوي، المرجع السابق، ص20.
- 15- الونشريسي، المصدر السابق، ج3 ص109-113، 264/ابن مرزوق محمد، المناقب المرزوقية، تج، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، 1429هـ/2008، المغرب، ص521/تيتاو، المرجع السابق، ص377-16. الونشريسي، المصدر السابق، ج4 ص114، 240، 267، 275، 285-17. المصدر نفسه، ج2، ص430-432.

- 18- فإذا كان انتاج الأب لسبيل العقاب في التنشئة والتربية له من التأثيرات السلبية على نفسية الطفل فما بالنا بالفقدان التام للوالد، وفي خضم ظرف اجتماعي عصيب؛ فقد أوردت المصادر أن نمط التأديب على كاهل القمع والعنف والتهديد بدل الحجة والإقناع، قد رسم وجها شاحبا عن طبيعة العلاقة بين الأب والابن، وأفضى إلى انعكاسات سلبية على نفسية الأبناء، تجلّت في ما ارتسم على شخصيته من عُقد نفسية واختلالات في مسارها الطبيعي، بل واستمرت تلك التأثيرات النفسية إلى سنّ ما بعد الطفولة، حتى أنّ هناك من ارتسمت تلك التأثيرات في ذهنه واحتفظ بآثارها وما نسبها إلى سنّ متقدّمة من حياته. للمزيد من التفصيل بهذا الشأن انظر الونشريسي، المصدر السابق، ج3 ص59/لطيف محماد، الطفولة والتنشئة الاجتماعية بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ط1، طبع طوب بريس، الرباط، المغرب، 1436هـ/2015م، ص33-35.
- 19- النبروي نجلاء سامي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للطفل بالأندلس (ق 4-10هـ/16-10م)، شبكة الألوكة، ص25-20. الونشريسي، المصدر السابق، ج4 ص19-21. تيتاو، المرجع السابق، ص389-22. الونشريسي، المصدر السابق، ج4 ص19/تيتاو، المرجع السابق، ص390-23. للمزيد في هذا الشأن، انظر تيتاو، المرجع السابق، ص390.
- 24- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص319/تيتاو، المرجع السابق، ص390-25. ابن مريم، المصدر السابق، ص38/الحفناوي، المرجع السابق، ج1 ص38.
- 26- وهو ما فصل فيه بشكل أكبر كل من: ابن مريم، المصدر السابق، ص38، الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص44.
- 27- التنيكي، المصدر السابق، ص130، ابن مريم، المصدر السابق، ص45-28. ابن مرزوق، المصدر السابق، ص300.
- 29- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص230-30. ابن الزيات يوسف، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبيعي، تح، أحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1997، ص436.
- 31- الونشريسي، المصدر السابق، ج2 ص430-32. ابن مريم، المصدر السابق، ص230-231/التنيكي، المصدر السابق، ص516-33.
- 33- محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص228-34. الونشريسي، المصدر السابق، ج3 ص111-112.
- 35- وإن كنّا لا نحوز على نص مصدري، يكشف طبيعة المعاناة النفسية التي تطالهم، فإن ذلك لا يعني انعدامها في الفترة المدروسة. وللوقوف على جوانب من هذا في وقتنا الحاضر، ينظر: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص229.
- 36- ابن مريم، المصدر السابق، ص93، التنيكي، المصدر السابق، ص161-37. التنيكي، المصدر السابق، ص566-570.
- 38- ابن مريم، المصدر السابق، ص288-39. الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص285-40. المصدر نفسه، ج3، ص318.
- 41- المصدر نفسه، ج3، ص323-42. التنيكي، المصدر السابق، ص566-572-43. المصدر نفسه، ص225-226.
- 44- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح، مختار حساني، ج1، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2009، ص38.
- 45- وهو الطرح الذي تزكّيه الدراسات الحديثة التي عكفت على دراسة نفسية الطفل وحياته الوجدانية. 46- محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص129-47. ابن مريم، المصدر السابق، ص38، التنيكي، المصدر السابق، ص412، الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص89-48. ولقد أشارت العديد من الدراسات الحديثة إلى هذا الأمر، وقصّلت فيه من ذلك الدراسة التي انجزها الباحث: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص232-49. ولا يمكن أن يخفى علينا حجم انعكاسات التأثير النفسي الذي تعانيه الأم على نفسية أولادها إذا استشعروه.
- 50- ولا بأس أن نبحث عن مادة تقرّنا إلى روح الحدث ولو بشكل نسبي، ويكون ملاذنا آنذ هو ما أفصحت عن الدراسات النفسية الحديثة عن ما يختلج نفسيات الأطفال، ويعيشون تحت سقفه من ألم، كدراسة: محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص155.